وشائج القربى في العربيّة.!

بقلم : محمد السيد علي بلاسي

عربيّتنا.. لغة فذّة فريدة من نوعها، سواء من حيث ولادتها وتكوّنها ونشأتها، أو من حيث مقوّماتها ومكوّناتها وعناصرها، ومن حيث مبادئها وأسسها وقواعدها، ومن حيث نواميسها وسننها وقوانينها، ومن حيث خصائصها وسماتها ومميّزاتها، ومن حيث — بالتالي — فلسفتها وعلمها وفقهها ؛ وبذلك، فإنها لا تشبه لغة من اللّغات، كما إنّها لا تشبهها لغة من اللّغات، فهي نسيج بينها جميعا..!(1)

ويتأتى كون اللغة العربية لغة فذّة فريدة في نوعها؛ من حيث إنّ المادّة فيها تدور حول معنى واحد، بمعنى : أنّ كلّ مادّة في العربيّة تدور حول معنى واحد مهما تصرّفت. وتلك ميزة، عزّت أن تكون في لغة من اللّغات إلا في اللّغة العربيّة..!

فالألفاظ في اللّغة العربيّة لها أصل ترجع إليه يمثّل المادّة الأصلية التي تدلّ على المعنى المصدريّ، ثم يشتق من هذا الأصل ألفاظ أخرى كثيرة للدلالة على معان متعدّدة بزيادة بعض الحروف، أو نقصها، أو تغيير الحركات، ومع ذلك فكلّ طائفة من الألفاظ تدور حول معنى عام يجمعها، وكأنّها مجموعات أسريّة تتلاق كلّ منها في إطار واحد، وتتجانس وتتشاكل إلى حدّ يمكن منه معرفة الشقيق والغريب والدّخيل، ويمكن منه كذلك معرفة نشوء اللّغة وكيف تطورت معالم ألفاظها ومعانيها وارتباطها بعضها ببعض...والاشتقاق يكشف هذه الحقيقة؛ فلو تتبعنا مادّة معجميّة ودرسناها وأمعنا النظر في المعاني التي تدل عليها ألفاظها، لوجدناها ترتبط بمعنى عام يشمل هذه المعاني ويعدّ مركزا لها تتفرّع عنه وتدور حوله.!(2)

ولتوضيح هذا نسوق بعض الأمثلة :

أولا : مادّة (ج ب ر) : فهي أين وجدت وكيف وقعت من تقدّم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه، إنما هو للقوّة والشدّة. وجهات تراكيب المادّة الست مستعملة كلّها لم يهمل شيء منها وهي : (ج ب ر)، (ج ر ب)، (ب ج ر)، (ب ر ج)، (ر ج ب)، (ر ب ج).

الأصل الأوّل : (ج ب ر) : تقول : جبرت

العظم والفقير إذا قويتهما وشددت منهما. ومنه : الجبر : الملك لقوّته وتقويته لغيره.

الأصل الثاني : (ج ر ب) : تقول : رجل مجرَّب : إذا جرّسته الأمور ونجّذته، فقويت مُنَّته، واشتدّت شكيمته. ومنه : الجراب : لأنه يحفظ ما فيه، وإذا حُفظ الشيء وروعي اشتدّ وقوى.

الأصل الثالث : (ب ج ر) : والأبجر والبُجرة : القويّ السرّة.

الأصل الرابع : (ب ر ج) : ومنه : البرج : لقوّته في نفسه وقوّة من عليه به. والبَرَج : لنقاء بياض العين وصفاء سوادها، هو قوة مرها، وأنه ليس بلون مستضعف.

الأصل الخامس : (ر ج ب) : ومنه : رجبت الرجل : إذا عظّمته وقوّيت أمره. ومنه : رجب : لتعظيمهم إياه عن القتال فيه : الرُجْبَة : فإنه إذا كُرمت النخلة على أهلها فمالت دَعَموها بالرجبة، وهو شيء تسند إليه لتقوى به. ومنه : الراجبة : أحد فصوص الأصابع، وهي مقويّة لها.

الأصل السادس : (رب ج) : ومنه : الرَبَاجِيّ : وهو الرجل الذي يفخر بأكثر من فعله. قال الشاعر :

* وتلقاه رَبَاجِيًا فخوراً* تأويله : أنه يعظّم نفسه، ويقوّي أمره...(3)

ثانيا : مادّة : (س ل م) : فإنها تدور حول معنى السلامة في تصرّفها، نحو : سلم، ويسلم، وسالم، وسلمان، وسلمى، والسلامة، والسليم : اللديغ، أطلق عليه تفاؤلا بالسلامة..(4)

ثالثا : مادّة : (ح د ق) : نجد أنها تدور حول الاحاطة والاستدارة، ومنها : حدقة العين، والحديقة، وأحدق بهم الخطر...ونحو ذلك.

من هنا، ندرك أن اللغة العربيّة تمتاز بدوران موادها، وتقلّباتها حول معنى واحد. وهذا الدوران حول معنى واحد قد توصّل إليه — قديما — علماء الاشتقاق، وعلى رأسهم العلاّمة ابن جني وابن فارس، ويعدّ هذا من ميزات لغة العرب التي لا تتمتّع بها اللغات الأخرى...!(5)

فمثلا كلمتا أخ وأخت ترجعان إلى مادة (أخو) في العربية، على حين نجدهما مختلفتين لا رابط بينهما في اللّغات الأجنبية، فبينما في الفرنسيّة مثلا : soeur و frère، وفي الانجليزية : sister و brother، ونحو ذلك كثير... وتلك ميزة للغتنا الشاعرة؛فإنه إذا اتفقت الحروف فيها أو تقاربت، اتّفق أو تقارب المعنى، والعكس بالعكس..!(6)

هذا بخلاف اللّغات الأخرى؛ فإننا نجد فيها كلمات لا يوجد ما يدل على أنها من أصل واحد مع تقاربها في الحروف، مثل كلمتا : canine وchien في الفرنسية؛ إذ المعنى مختلف بينهما تماما، فالأولى بمعنى (عادات) والثانية بمعنى (كلب).

كذلك نجد كلمات ذات أصل معنوي واحد، غير أنها لا تشترك في المادّة، مثل كلمتا : capitaine (رئيس فريق كرة) و chef (رئيس حكومة)، لهما أصل معنوي واحد هو الرئاسة، ولا يشتركان في مادّة واحدة — فحروف كل منهما تختلف عن حروف الأخرى — مع أنّهما يرجعان إلى كلمة : caput اللاتينية ومعناها (الرأس).(7)

كذلك لفظ (الصديق) في العربية من الصدق و(العدوّ) من العدوان، في حين أنّ كلمة : ami = صديق في الفرنسية وهي مشتقة من لفظ يفيد معنى المحبّة وennemi عدوّ لفظ مركب يفيد نفي المحبّة أي بمعنى البغض. فالمفهوم العربيّ للصداقة مبنيّ على الصدق وللعداوة على العدوان، على حين

أنّه عند الفرنسيين مبنيّ على أساس الحبّ والبغض.. !(8)

من هنا، فإنّ اللّغة العربيّة ــ كما يقول الأستاذ العقّاد ــ : تعتبر في مقدّمة اللّغات جميعاً، تعبيرا ودلالة، وتصويراً للمجتمع الذي فجّ ــ ويلهج ــ بها ؛ ففي ألفاظها التي قطعت الأزمان التاريخية المتطاولة ما يدلّ على أصلهم وتاريخهم وعقليّتهم، فالكتابة والشكل والرسم والبلاغة والفصاحة والدلالة نفسها كلمات مستعارة من حياة أقوام رعاة وقبائل مترحلة. فالكتابة والشكل : بمعنى القيد. والرسم : أثر خطو الابل على الرمل في رسيمها أو سيرها على العموم، والبلاغة : من الوصول إلى غاية المسير، والفصاحة : من اللّبن الفصيح الذي زال رغوه، والدّلالة للقافلة كالدّلالة في الكلام..(9)

وتلك صورة من صور اتّهام اللّغوي الذي اتسمت به لغتنا الخالدة، ولم يكن هذا اتّهام الكلّي الشّمولي الجامع للّغة العربيّة ناجما عن تطوّر تكامليّ تدريجيّ مُتنام، استغرق أزماناً تاريخيّة مديدة، كما لم يكن ناتجاً عن عمل تشكيليّ مصنوع، نشأ على أيدي علماء اللغة ؛ وإنّما كان شيئاً ذاتيا مطبوعاً، فطرتْ عليه هذه اللّغة منذ أن وُجدتْ، ولازمها طوال حياتها، وسيكون ملازماً إيّاها أبد الآبدين..(10).

* * *

الهوامش

(1) إسماعيل العرفي : اللّغة العربية..أم اللّغات ولغة البشريّة. ص11 ــ بتصرف يسير ــ ط. أولى ــ دار الفكر بدمشق1406 هـ.
(2) د. عبد الغفار هلال : اللغة العربيّة..خصائصها وسماتها. ص5. 175. 176ــ بتصرّف. ط3 ــ مطبعة الحضارة العربية 1406 هـ.
(3) العلاّمة ابن جنّي : الخصائص 2 : 135. 136 ــ بتصرّف ــ تحقيق..محمد علي النجّار. ط2ــ دار الهدى بيروت.
(4) المصدر السابق : 2 : 134.
(5) د.عبد الغفار هلال : اللّغة العربيّة ..خصائصها وسماتها. ص7 ــ بتصرّف..
(6) انظر : المرجع السّابق : ص 178 ودمشقها.
(7) نفس المرجع : ص7. 178 ودمشقها. وراجع : خصائص العربيّة ومنهج الأصيل : د.محمد المبارك. ص 29. فما بعدها من التفصيل.
(8) د.محمد المبارك : فقه اللّغة. ص 138. ط. جامعة دمشق 1379 هـ.
(9) عباس محمود العقّاد : اللّغة الشّاعرة. ص 42. ط. مصر1960 م.
(10) إسماعيل العرفي : اللّغة العربيّة.. أم اللّغات ولغة البشريّة. ص 15.

المصادر والمراجع :

1 ــ الخصائص :

ابن جنّى، تحقيق محمد علي النجّار، ط2 ــ دار الهدى بيروت.

2 ــ **خصائص العربيّة ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد :**

د.محمد المبارك. (بدون ذكر الطباعة والتاريخ).

3 ــ **علم اللّغة بين القديم والحديث :**

د.عبدُ الغفّار هلال، ط2 ــ الجبلاوي1406 هـ.

4 ــ **فقه اللغة :**

د. إبراهيم محمد أبو سكّين، ط. الأمانة 1404هـ.

5 ــ **فقه اللغة :**

د. محمد المبارك، ط. جامعة دمشق 1379هـ.

6 ــ **اللّغة الشاعرة :**

عباس محمود العقاد، ط. مخيمر 1960م.

7 ــ **اللّغة العربيّة..أم اللّغات ولغة البشريّة :**

إسماعيل العرفي، ط. أولى دار الفكر بدمشق 1406هـ.

8 ــ **اللّغة العربيّة..خصائصها وسماتها :**

د. عبد الغفار هلال، ط 3 ــ مطبعة الحضارة العربيّة 1406هـ.